

## ابن دقيق العيد

للدكتور محمد مصطفى زيادة  
الأستاذ المساعد بكلية الآداب

والشافعي، وفي الحديث، وأفتى الفتاوى الكثيرة التي برهنت على أنه ثبت وحجة في علم الشريعة؛ وعرف في جميع أدوار حياته بالشدة في الحق، والسير على مقتضى أصول الدين لا يحميد عنها قيد أغلة، مهما كلفه ذلك من غضب سلطان أو أمير. وقد نقل عنه حسبما ذكر ابن العباد<sup>(١)</sup> أنه قال: «ما تكلمت بكلمة ولا فعلت فعلاً إلا أعددت له جواباً بين يدي الله تعالى»

ظل ابن دقيق العيد متولياً لمنصب قاضي القضاة بالديار المصرية حتى وفاته سنة ٧٠٢ هـ وكان كثير التطلع إلى أخبار نوابه بالأعمال المصرية، يبعث إليهم بكتبه المشتملة على المواعظ والتحذيرات من عواقب الغفلة والاهمال في الأحكام. وقد نقل النويري<sup>(٢)</sup> أحد هذه الكتب التي أنفذها ابن دقيق العيد سنة ٦٩٧ هـ ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم: الفقير إلى الله محمد بن علي (يا أيها الذين آمنوا) قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون). هذه المكتوبة إلى فلان وفقه الله لقبول النصيحة، وآتاه لما يقربه تصدأ صالحاً ودنيا صحيحة. أصدرناها إليه بعد حمد الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعمل حتى يلتبس الإهمال بالاهمال على المنور، تذكرة بأمر ربك، فإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون؛ ويحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فأحد سواء مغبون، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه، وتأخذ هذه النصائح بحجزه عن النار، فإن أخاف أن يتردى فيجر من ولأه والعباد بالله - معه. والمقتضى لإصدارها ما لحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب، ومن تقاعد الهمة على ما يجب للرب على الربوب، ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة، وظهروا بصور كبار وهي نحيفة. والله إن الأمر لعظيم، وإن الخطب لجسيم، ولا أرى مع ذلك أمناً ولا قراراً ولا راحة، وإلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه، وأخذ إليه هواه، وقصر همه وهمته على حظ نفسه من دنياه، ففأية مطلب الحياة والمنزلة في قلوب الناس وتحسين الرقي والملبس، والركبة والمجلس، غير مستشعر خسة حاله ولا ركافة مقصده،

(١) ابن العباد: شذرات الذهب (طبعة مصر) ج ٦ ص ٥  
(٢) النويري: نفس المرجع ج ٢٩ ص ٣١١ أو ما بعدها

يظفر القاري

في تاريخ الماليك  
بمصر بشخصية  
رجل لا تربط  
بغالبية أهل ذلك  
العصر المنيف  
دنيوية، لتبزه  
عن المادة، وعزوفه  
عن شهوة المنصب  
وزخرفها، ذلك  
هو قاضي القضاة



ابن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) وهو الشيخ تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري المنفلوطي الشافعي المالكي المصري

وكان أصل لقب «ابن دقيق العيد» الذي عُرف به في كتب التاريخ حسبما ورد في النويري<sup>(١)</sup> أن جده وهب بن مطيع لبس في يوم عيد ثياباً بيضاء، فرآه جماعة من أهل الريف فقال قائل منهم كأن ثيابه دقيق العيد لبياضها، فلزمه هذا اللقب، واشتهر به بيته وسلاله

تولى ابن دقيق العيد منصب قاضي القضاة بالديار المصرية سنة خمس وتسعين وستمائة هجرية، والسلطان يومئذ الملك المادل زين الدين كتبغا المنصوري؛ وكان قبل توليته تلك الوظيفة الكبري قد درس بالمدرسة الناصرية بالشافعي وبنار الحديث الكاملة وغيرها، وصنف التصانيف في فقه الذهبين المالكي

(١) النويري: نهاية الارب (مخطوط بنار الكتب المصرية) ج ٣٠ ص ٣٣٦

يقولون هذا عندنا غير جائز  
 ومن أتم حتى يكون لكم عند؟  
 وكرر ذلك ذلك ثلاث مرات ثم قال: « والله متى لم تقم  
 عندي بيّنة شرعية ثبتت عندي وإلا فلا حكمة له بشي باسم الله »  
 فقام كرت وهو يقول: « والله هذا هو الاسلام ». وعاد إلى  
 منكوتمر واعتذر إليه بأن: « هذا الأمر لا بد فيه من اجتماعك  
 بالقاضي إذا جاء دار العدل »  
 فلما كان يوم الخدمة وصار القاضي على دار النيابة بالقلمة،  
 ومنكوتمر جالس في الشباك، تسارعت الحجاب واحد بعد آخر  
 إلى القاضي وهم يقولون: « ياسيدي الأمير ولدك يختار الاجتماع  
 بك لخدمتك » فلم يلتفت إلى أحد منهم. فلما ألحوا عليه قال لهم:  
 « قولوا له: ما وجبت طاعتك عليّ » والتفت إلى من معه من  
 القضاة وقال: « أشهدكم أنني عزلت نفسي باسم الله. قولوا له بول  
 غيري » وعاد إلى داره وأغلق بابه، وبعث نعياءه إلى النواب في  
 الحكم وعقاد الأنكحة بمنهم من الحكم وعقد الأنكحة  
 فلما بلغ السلطان ذلك أنكر على منكوتمر وبعث إلى القاضي  
 يعتذر إليه ويستدعيه، فأبى واعتذر عن طلوعه. فبعث إليه  
 الشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبيد والطواشي مرشداً،  
 فما زال به حتى سعدا به القلمة. فقام إليه السلطان وتلقاه، وعزم  
 عليه أن يجلس في مرتبته، فبسط منديله - وكان خرقة كتان  
 خفيفة - فوق الحرير قبل أن يجلس كراهة أن ينظر إليه، ولم  
 يجلس عليه. وما برح السلطان يتلطف به حتى قبل الولاية، ثم  
 قال له: « ياسيدي، هذا ولدك منكوتمر خاطرك معه، أدع له »  
 وكان منكوتمر ممن حضر، فنظر إليه قاضي القضاة ساعة وصار  
 يفتح يده ويقبضها وهو يقول: « منكوتمر لا يبجي منه شي »  
 وكررها ثلاث مرات وقام. فأخذ السلطان الخرقة التي وضعها  
 على المرتبة تبرّكاً بها، وتفرقتها الأمراء قطعة قطعة ليدخروها  
 عندهم رجاء بركتها

هذا هو ابن دقيق العيد وتلك شدة مراسه في الحق

محمد مصطفى زيادة

فهذا لا كلام معه، فإنك لا تسمع الموتى وما أنت بسمع من في  
 القبور. فاتق الله الذي يراك حين تقوم، واقصر أملك عليه  
 فالخروم من أمه غير مرحوم. وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال  
 حبيب العجمي، وقد قال له قائل: « ليتنا لم نخلق » فقال:  
 « قد وقمتم فاحتالوا ». وإن خفي عليك بعض هذا الخطر وشغلتك  
 الدنيا أن تقضى من معرفته الوطر، فتأمل كتاب النبوة: إن  
 القضاة ثلاثة، وقوله صلى الله عليه وسلم لمن خاطبه مشفقاً عليه:  
 « لا تأمرن على اثنين، ولا تليّن مال يقيم » ولا حول ولا قوة  
 إلا بالله العلي العظيم اهـ

وقد حدث في سنة ٦٩٧ هـ، والسلطان يومئذ الملك المنصور  
 حسام الدين لاجين، أن نائب السلطنة منكوتمر أراد أن  
 يستخلص من ابن دقيق العيد حكماً في قضية ميراث لأحد أصحابه  
 بغير بيّنة شرعية، فامتنع قاضي القضاة من ذلك وهو عالم بأن  
 منكوتمر أقوى شخصية في الدولة قاطبة، وترددت الرسل بينهما  
 وابن دقيق العيد لا يتحرك عن موقفه؛ فأغاظ ذلك منكوتمر  
 وأرسل أحد الأمراء الكبار إلى قاضي القضاة لعله يفوز منه  
 بطائل. وقد أورد المقرئ<sup>(١)</sup> قصة هذا الحادث في تفصيل،  
 فذكر أن منكوتمر بعث إلى ابن دقيق العيد يعلمه أن تاجرآ قد  
 مات وترك أخاً ولم يخلف غيره ممن يرثه، وأراد أن يثبت  
 استحقاقه الإرث بمجرد هذا الاخبار عنه، فلم يوافق قاضي  
 القضاة على ذلك. وترددت الرسل فخرج منكوتمر من ذلك وبعث  
 إليه الأمير كرت<sup>(٢)</sup> الحاجب؛ فلما دخل كرت وقف بعد  
 ما سلم، فقام له القاضي نصف قومة، ورد عليه السلام وأجلسه.  
 وأخذ كرت يتلطف به في إثبات أخوة التاجر بشهادة منكوتمر؛  
 فقال له ابن دقيق العيد: « وماذا يبنى على شهادة منكوتمر؟ »  
 فقال له: « ياسيدي ما هو عندكم عدل؟ » فقال:  
 « سبحان الله! » ثم أنشد:

(١) الفرزي: السلوك (طبعة الدكتور زيادة) ج ١ ص ٨٤٨ وما بعدها

(٢) Zettersteén: Beiträge zur Geschichte der Mamlûk\* (٢) ensultane (Brill 1919) P. 10